نفي العبث عن النحاة

في التعجب

للأستاذ عبد الحميد عنتر

مهداة إلى من يعترف بالفضل لأهله

إني لأعجب أشد العجب ممن يعمد إلى هدم البناء النافع المتين ، بدون أن يبني على أنقاضه بناء نافعا أو أنفع منه أو يطول عجبي أكثر إذا كان الهادم نفسه ممن تقدم بهذا البناء النافع ، واستفاد منه في حياته أيما فائدة !

هذه قواعد النحو العربي — ومنها التعجب — تدرس وتبحث منذ ثلاثة عشر قرنا هجريا (من سنة ٦٧ — ١٣٦٩ هـ) وقد تلقاها العلماء بالقبول ، وجعلوها نبراسا يستشفون به أساليب القرآن ، وأحاديث الرسول ، ومنثور العرب ومنظومهم ، ويحكمونها فيما ينشأ من كلام المستعربين والمحدثين من النثر والنظم ، حفاظا على اللغة من أن تضيع ، أو تلعب بها الأهواء .

ألا تعجب معي أيها القارئ ، إذا أتى بعد ذلك من يرمي النحاة بالعبث والتضليل والتجهيل ، ويصف كلامهم بأنه غثاء أو هراء ، ويتهكم عليهم بأنواع الزراية والسخرية اللاذعة !

استمع إلى الأستاذ « كمال بسيوني » يقول في عدد الرسالة (٨٨١) : في الحق أن النحاة يكلفون أنفسهم شططا ، ويرهقونها عسرا حينما يريدون أن يعللوا كل شيء ، فلا ينتهي بهم التعليل والتحليل ، إلا إلى التجهيل والتضليل ، ولم أر النحاة ضلوا في باب من أبواب النحو ضلالهم في باب التعجب ، وأكون مقررا للواقع حين أقول : إن واحدا منهم لم يفهم من قريب أو بعيد صيغتي التعجب . إلى أن قال ... أو لأنك لم تؤت القريحة النفاذة التي تستطيع بها أن تستسيغ هذا الغثاء ، وأن تفهم هذا الهراء ، ثم أخذ يحلل الصيغتين بتحليل يزعم أنه من عنده ، وأنه بحث على جديد يحسن بالقائمين بأمر النحو في مصر أن يتأثروه ، وأنهم لو فعلوا ذلك لكان إيذانا بانبثاق فجر جديد لقواعد العربية . هذا كلامه . وأقول : لكي لا أشق على القارئ بالتطويل في الرد أجمل الكلام في النقاط الآتية :

قاعدة التعجب عند النحاة . فساد هذه التسمية في نظر الكاتب والرد عليه الكاتب يأخذ رأيه من كلام النحاة ويزعم

منها باسمه . إن كل واحد منهم يبدو كأنه آدم الإنسان الأول الذي لم يشاهد الوجود إنسان قبله . وكأن قصته قصة آدم اللهم مع الملائكة على وصف القرآن الكريم « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

إن كل عبقري آدم ، وكل من انتفع في جو عبقري خلال صحبته حتى تشبع برسالته هو آدم .

نعم ، آدم « النبي الساذج الطازج » الذي « علمه الله أسماء الأشياء » ولم يتعلمها من أحد غيره ، وألهمه الله إياها ولم يدرسها حتى على « الملائكة » الذين خلقهم الله من نور ، وليس وكدهم في حياتهم إلا تسبيح الله وتقديسه ، وليس بينهم وبين الاطلاع على شيء حجاب من الحجب التي تثقل آدم الذي خلقه الله من « طين » فغلبهم في ميدانهم ، وعرف « الملائكة » أنهم لا يعلمون إلا ما علموا ، وأن خزائن الله « العزيز الحكيم » حافلة بالآيات التي لا تملك أمامها المخلوقات ولو كانوا « ملائكة » إلا العجز والتسليم .

ومن هنا يظهر جانب من إعجاز العبقرية وتأثيرها في السرائر الإنسانية المتفتحة لقبول الفيض الغامر الخالق من الشخصية العبقرية في «صحبتها» المباشرة . كما يظهر هذا الجانب الإعجازي في إنهاض البشرية ودفعها نحو الجمال والكمال عن طريق الصلات الشخصية المتوالية ، وخصوصا أن العبقريات بين البشر نادرة ، وذوات الرسالات الكبرى بين العبقريات أندر .

(جدة) محمد خليفة التونسي

أنه رأى جديد له ا حملته على شيوخ النحو فى مصر .

١ — قاعدة التعجب عند النحاة : يسلم الكاتب الفاضل أن القاعدة التى وضعها النحاة لما يصوغه التعجب سليمة لا غبار عليها ، وقد طبقت على جزئياتها القياسية المختلفة ، وعاد ذلك على اللغة بالخير الكثير ، ويسلم أيضا أن هذا هو المقصود من وضع القواعد ، وأعتقد أنه لم يخالف فى هذا أحد من النحاة القدامى أو المحدثين ، حتى من أهديت إليه هذه المقالة ، وهو الأستاذ الكبير إبراهيم بك مصطفى عميد كلية دار العلوم . ولكنه يصب جام غضبه المضرى على شىء واحد لا دخل له فى قواعد النحو فى قليل أو كثير . ذلك الشىء هو تحليلهم صيغتى التعجب وإعرابهما وتسمية هذا الباب بباب التعجب !

لنفرض جدلا أن النحاة أخطئوا أشنع الخطأ فى هذا التحليل وذلك الإعراب مع سلامة قاعدتهم التى بنوا عليها الأحكام النحوية . فهل هذا يستوجب من الكاتب هذه الغارة الشعواء وتلك الحملة المنكرة ؟! إنى أترك الجواب للقارىء المنصف .

٢ — إذا قلنا : ما أحسن العلم وأحسن به ، وما أقبح الجهل وأقبح به ، أو قلنا ما أجل الورد وأجل به ، وما أقبح الشر وأقبح به . فان الكاتب يزعم أن ليس فى هذه الصيغ تعجب البتة ، وإنما تفيد الكثرة والمبالغة ، ويدعى أن المعنى الأدبى لهذه الصيغ هكذا : العلم حسن جدا ، والجهل قبيح جدا ، والورد جميل جدا ، والشر قبيح جدا . وظاهر أن هذا ليس بتعجب . « فتسمية هذا الباب بباب التعجب تسمية غير سديدة » .

الرد — لم يوفق الأستاذ الكاتب لفهم معنى التعجب الذى يعنيه النحاة الأدباء — وكان النحاة فى أول عهد النحو علماء بقواعد العربية وباللغة والأدب — ومعناه عندهم كما قال ابن يعيش (ص ١٤٢ ج ٧) معنى يحصل عند التعجب عند مشاهدة ما يجهل سببه . وذلك المعنى كالدهش والحيرة » .

ونحن إذا حللنا الأمثلة التى منع الكاتب أن تكون للتعجب وجدنا فيها كلها هذا المعنى التعجبى الذى شرحه العلماء .

فمعنى (ما أحسن العلم وأحسن به) أتعجب من حسن العلم لخفاء السبب الذى به حسن .

ومعنى (ما أقبح الجهل وأقبح به) أتعجب من قبح الجهل ، فقد غاب عنى السبب الذى من أجله قبح .

ويلزم هذا المعنى الذى شرحته معنى آخر وهو المدح فى المثال الثانى بطريق المبالغة ، ويقاس عليهما ما أجل الورد ، وما أقبح الشر . فالمعنى التعجبى كما قلت أولا ، والصيغ بهذا المعنى أو بمعنى المدح والذم خبرية لفظا إنشائية معنى ، لأن التعجب والمدح والذم من وادى الإنشاء غير الطلبى ، كما تقرر فى علم المعانى . والمعنى اللازمى يفيد المبالغة فى المدح أو الذم أو غير ذلك بحسب مواد التعجب . مثل أن تقول : العلم حسن جدا ، والجهل فى غاية القبح ، والورد فى نهاية الجمال ، والشر قبيح جدا . فالمقصود الأصلى للعربى من صيغ التعجب هو الدلالة على التعجب ، ودلالتها على المبالغة فى المدح أو الذم أو غيرهما تابع للمقصود ، والذى قلته هنا قال مثله النحاة . ينظر الصبان على الأشمونى فى أول باب التعجب . وبذا تبين أن النحاة فهموا معنى التعجب تماما ، وأنهم لم يهملوا المعنى الذى يدعى الكاتب أنه من عنده ، وأنه لم يأت بجديد يتأثره القائمون بأمر النحو فى مصر :

بقى أن رأيه الجديد بأن معمول فعل التعجب المنصوب أو المجرور بالباء الزائدة فى نحو قولنا : ما أجل الورد وأجل به مسندا اليه هذا الرأى الجديد مأخوذ من شرح ابن يعيش على مفصل الزمخشرى (ص ١٤٨ ج ٧) !! ولا أطيل بذكر النص لئلا يمل القارىء . فليرجع إليه إن شاء .

٣ — حملته على شيوخ النحو فى مصر :

عنى النحاة على طريقتهم فى البحث والتمحيص بفهم المعنى من صيغتى التعجب أولا ، ثم بإعرابهما ثانيا .

ولا زلنا ندرس النحو على هذه الطريقة . وما الذى يضير إذا أعربنا (ما) بأنها تعجبية مبتدأ ، و (أجل) بأنه فعل ماض ، وفيه ضمير مستكن وجوبا يعود على (ما) . والورد منصوب على التشبيه بالمفعول ، وقلنا فى إعراب (أجل به) أجل فعل ماض ، جاء على صورة الأمر للتعجب . والباء زائدة زيادتها فى « وكفى بالله شهيدا » وضمير الورد فاعل فى المعنى ، لأنه الموصوف بالجمال الزائد . ماذا يضير لو وجهنا هاتين الصيغتين بهذا التوجيه الإعرابى أو بغيره من التوجيهات التى ذكرها النحاة بدون أن نتعرض لأساس القاعدة ؟ اللهم إن انتقاد هذا الأمر المهين هروب